**سورية مهد الحضارات وعبق التاريخ وأرض المستقبل**

**إكسبو 2020 دبي**

**المقدمة:**

هناك بعيداً في بلاد الشرق حيث تشقّ الشمس بوابة السماء لتبعث بنورها إلى كل أرجاء الأرض، هناك في جوف السماء تسكن العنقاء التي أرادت بعد ألف عام أن تولد من جديد، فتركت موطنها وسعت صوب هذا العالم فاختارت لنفسها قمّة شاهقة حيث بنت عشّها لتحترق في النار ويُخلق من رمادها كائن جديد مفعم بالقوة والعنفوان ليُحلق من فوره عائداً إلى موطنه الأصلي "**سورية سرمدية الحب وأزليّة البقاء**".

سترتحل بكم العنقاء بمغامرة عبر الزمن لتسبر أغوار التاريخ بحثاً عن معالمه وتروي لكم حكايا الإنسان والحضارات في بلد الشرق البعيد في سورية عبق التاريخ ومهد الحضارات. وترسم مستقبلها بأيديها التي ينساب منها الحرير وبعبق وردتها الشاميّة التي يجثو التاريخ عند جذورها وتثير نفحات أريجها تطلّعها الأزلي لبناء المستقبل.

لقد ولدت على هذه الأرض أعظم الحضارات التي لا تزال آثارها حتى يومنا هذا تختال شامخة في أرجائها، يقول كلً من عالم الآثار الفرنسي **أندريه بارو** وعالم المسماريات وأول باحث آثار فك رموز أبجدية الأوغاريتيين **شارل فيرلو "لكل إنسان متحضّر في هذا العالم وطنان؛ وطنه الأم وسوريا**". يُحصي علماء التاريخ ثمانٍ وثلاثين حضارة مرت فيها، منها من عَبَرها ومنها ما استقر فيها ليترك بصماته في ثقافتها. كما كانت هذه المنطقة قبلة لشعوب هاجرت إليها هرباً من غوائل التاريخ. ستروي لكم العنقاء قصّة مملكة (إيبلا) حيث اكتُشفت أروع وأضخم مكتبة وثائقية تنظّم أمور الإدارة والتجارة والدبلوماسية والصناعة وعلاقات الحرب والسلم مع الممالك الأخرى، ومنها إلى مملكة (ماري) حيث ستذهلون بتصاميم القصور والرسوم والازدهار التجاري والثقافي، إلى (أوغاريت) التي قدمت للإنسانية ابتكارها المعجز "الأبجدية الأولى في العالم"، و"أول نوتة موسيقية في العالم"، حيث سجلت رُقم أوغاريت وثائق علمية وقانونية ودينية وملاحم وأساطير.. هنا نقرأ أسطورة الأميرة "أوروبا"، شقيقة الأمير الفينيقي قدموس، والتي منحت اسمها للقارة العجوز، وهنا نتعرف على دور الفينيقيين ملوك البحار، حيث أبحرت من الساحل السوري أول سفينة فينيفية ناقلة معها الحضارة والعلوم إلى أنحاء العالم في مهمة إنسانية وثقافية وتجارية مازالت آثارها ونتائجها ماثلة حتى الآن، ونمعن النظر في أجمل تجليات ميثولوجيا هذا الشعب عبر نصوص تبرز عظمة وأهمية الكلمة والحكمة والفضيلة، أما **ألكسندر المقدوني** فيقول عندما خيّم في تخوم أنطاكيا السورية وشرب من ماء نبع قريب "ماء هذا النبع يذكرني بحليب أمي.. سوريا هي وطني الثاني"، إلى مملكة (آكاد) التي ذاعت شهرتها بصناعة المنسوجات الحريرية الموشاة بخيوط الذهب، والذي تُعرف في أوروبا باسم "الدامسكو" نسبة إلى دمشق ثم عُرف في إيطاليا باسم "بروكاتلو" والذي تحول بالفرنسية إلى "بروكار" ليشير إلى هوية هذا الإبداع السوري الذي يعتبر اختصاراً لعبارة "قماش مصنّع يدوياً من الحرير الطبيعي ومطرزاً بخيوط ذهبية أو فضية". بالإضافة إلى الخشب المحفور والمطعّم بالعاج والصدف.. لكل أمةٍ ما يميزها عن الأمم في عراقتها وأصالتها وقدمها عبر التاريخ وأكثر ما يميّز سورية الموزاييك الدمشقي وهو فن تطعيم الخشب بالصدف وهو من المهن العريقة والقديمة والذي لا يزال يزخرف جدران وأسقف البيوت الدمشقيّة القديمة. هنا في سورية أهدى الإنسان البشرية إنجازاً حضارياً كبيراً حيث اكتشف النحاس وطوّعه وابتدع خليطة البرونز، إلى تدمر حيث اكتشفت بقايا آثار العصر الحجري في منطقة معبد بل ومصنوعات معدنية تعود إلى العصر البرونزي.

لم تكتف هذه الأرض بأن تكون بوابة التاريخ بل كانت مهد الديانات التي انطلقت منها رسالاتها، لقد عرف السوريون فكرة الدين وطقس الصلاة والعبادة والتضرع لآلهة تمثل رمزياً عناصر الطبيعة مثل الإله بعل إله الشمس وإيل إله المطر وعشتار آلهة الخصب وحدد إله الطقس وغيرها العديد العديد من الآلهة التي عرفت من خلال المنحوتات والرسومات الأثرية، كما كانت المنطلقات الأولى للمسيحية والإسلام وارتبطت بذكرياتهما وتقاليدهما ومقدساتهما، وتنتشر على أرضها مئات من أضرحة القديسين والأولياء الصالحين، فكنائسها وجوامعها لا تعد ولا تحصى. من دمشق ومن طريقها المستقيم بدأ بولس الرسول رحلة الإيمان، ولاتزال إلى اليوم لغة السيد المسيح "الآرامية" يتحدث بها الناس في معلولا وجبعدين.

لقد كانت سورية عبر العصور نقطة التقاء الحضارات والثقافات والديانات والفلسفات والفنون كما كانت مركزًا استراتيجيًا لعبور القوافل وتغذية البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا حيث كانت تتلاقى القوافل البحرية المنطلقة من اليابان عبر المحيط صعوداً في الخليج فالفرات وانعطافاً قبالة تدمر ثم تتوزع تلك القوافل جميعها باتجاه الشمال الغربي نحو حلب لتلتقي فيها مع القوافل الأوربية القادمة إليها عبر البر وهو ما يُسمى طريق الحرير البري وباتجاه الغرب لتلتقي في اللاذقية وطرطوس مع القوافل الأوربية القادمة عبر طريق البحر المتوسط ويُطلق عليه طريق الحرير البحري، وباتجاه الجنوب الغربي لتلتقي في دمشق مع القوافل القادمة من فلسطين ومصر والدول العربية في شمال أفريقيا وباتجاه الجنوب لتلتقي في بصرى مع قوافل الشتاء والصيف القادمة من الجزيرة العربية، كانت كل قافلة تحمل بضائع بلدها ومنتجاته وتراثه وعاداته وثقافته وأفكاره وتتبادلها مع مثيلاتها من القوافل حيث كانت عبارة عن سفارات متنقلة تحطّ في خانات سورية التي تُمثّل الفنادق في ذلك العصر.

خلال تعاقب الحضارات أنبتت هذه الأرض مفكرين وعلماء ومهندسين وشخصيات عظيمة أثرت في تاريخ البشرية والذين جابوا بمعرفتهم وعلومهم ومهاراتهم أرجاء الأرض وارتحلوا من بلاد الشرق إلى كافة أنحاء أوروبة والعالم. نبدأ من روما حيث يقول الشاعر اللاتيني جوفيال "**أنّ نهر العاصي السوري أخذ يصبّ مياهه منذ وقتٍ طويل في نهر التيبر حاملاً معه لغته وعاداته وعوده وقيثارته بأوتارها المائلة وهذا خير دليل على الحضور السوري المتميّز ونفوذه في روما"** لنتعرف على المهندس المعماري الأعظم والأهم في تاريخ روما **"أبولودور الدمشقي"** والذي يكمن اسمه خلف أعظم المنجزات المعمارية فهو الذي شيّد الجسر العملاق على نهر الدانوب وعمود تراجان الذي يشبه فن البناء الآشوري ودار العدل الرومانية والمكتبات والمعابد ومسرح الأوديون، واليوم نرى تمثاله واقفاً بكل رجولة ونظرته المشهورة إلى الأفق وذقنه المنمّقة وقوة شكيمته المعهودة في متحف ميونخ. كما نتعرّف على الشاعر الحكيم **"بوبيلو السوري"** الذي خدم لدى أحد وجهاء روما، إلا أن نباهته وذكاءه وحسن خلقه وحكمته أهلته لإشغال مكانة مرموقة إلى جانب المفكرين في بلاط إمبراطور روما وقد أطلق عليه الرومان "صديق الشعب" إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا التي استمدت من تشريعات الحقوقي شهيد العدالة الشهير **إميليوس بابينوس** المصدر الرئيسي لكل قوانينها. لقد ألّف ١٩ رسالة في القانون و٣٧ مؤلفا في قضايا حقوقية، وكان ضمن الفقهاء السوريين الخمسة (ألبيان وغايوس وبولس وموديستوس) اللذين صاغت تشريعاتهم 80% من مدوّنات الإمبراطور يوستنيانوس في القانون.

تحت رداء التاريخ وبين الحواري المتعرّجة تختبئ بيوت متعانقة متلاصقة تعكس إرث حضاري وتاريخي وإنساني وأسلوب عمارة بطراز فريد أدهش كل من زارها. إنّ عبقرية العمران في دمشق القديمة كانت مدرسة في مفهوم الاستدامة ولا سيما أنه حقق أعلى درجات الحفاظ على البيئة المحيطة، شُيّدت هذه الدور متلاصقة في حارات ضيّقة متزاحمة لتقليل الأسطح المعرضة للشمس وزيادة مساحة الظل، لقد ساعد تباين الضغط والحرارة بين الخارج والأفنية الداخلية في توليد تيارات هوائية تقيهم حر الصيف وتحمل روائح أشجارهم العطرية إلى كل أرجاء المنزل وحجراته، كما بُنيت الأسقف عالية مرتفعة من مواد عازلة للحرارة كطوب اللبن والخشب للحفاظ على الهواء البارد أكبر فترة ممكنة في النهار. يعتمد البيت الدمشقي في بنائه على الإبداع والسخاء في التصاميم والزخرفة من الداخل، وتتصدر البيوت القديمة ببنائها المتقن مزايا العمارة الدمشقية بأدق تفاصيلها حيث اهتمت بكل شيء، بدءاً من باحة الدار المربعة والتي تُعتبر رئة التنفس الأساسية للسكان إلى كل زاوية من زوايا البيت حيث نحد بروزات معمارية تبدو كمظلة تقي من مطر الشتاء وعرائش نباتات خضراء متدلّية تخفف من وهج شمس الصيف، كما نجد في بعض البيوت فتحة جدارية كبيرة ينسكب منها الماء من الأعلى، وما إن تلج إلى الفناء فإن أول ما يصادفك هو نسيم الهواء البارد المحمل برائحة الليمون والريحان وتطرب أذنيك لخرير الماء في النافورة المنتصبة في منتصف الباحة،. يحتوي البيت الدمشقي على إبداعات معمارية وزخرفات بالخط العربي الذي نجده في الجدران والأسقف ليعكس الذوق الفني والتقاليد الاجتماعية والتكوين الأسري السائد في المدينة، بالإضافة إلى أنّ التقسيمات والفراغات في البيت الدمشقي تراعي حالات الطقس وفصول السنة. ستلقى في كل موطئ للعين في البيت الدمشقي جمالاً وسحراً خاصاً، وإن أغمضت عينيك تمتعت أذناك وأنفك بخرير الماء وروائح أشجار الفناء العطرية حيث اشتهرت دمشق بوردتها الدمشقيّة التي زرعها الدمشقيّون في فناء بيوتهم، يقول نزار قباني "**أنا وردتكم الدمشقية يا أهل الشام، فمن وجدني فليضعني في أول مزهرية**". لكن هذه الوردة لا تقتصر فقط على جمالها وعبيرها لطالما كان لها فوائد عديدة للبشرية حيث يُصنع منها العصائر وماء الورد والعقاقير، ويستخلص منها الزيت الذي يُضفي عبق أريجه على العطور. أنت هنا في رحاب البيت الدمشقي آمن من حر الصيف وبرد الشتاء، أنت هنا في نعيمك الأرضي.

ولن ننس أبداً المطبخ السوري العريق الذي يمتاز بأطباقه الشهيّة والمتنوعة حيث يستمد تنوّعه من الطبيعة السورية والمناطق والمدن فكل مدينة ومنطقة في سورية لها ما يميزها من الأطباق الشهيّة.

ستشارك الجمهورية العربية السورية في إكسبو دبي 2020 بجناح بشكل بيت دمشقي يحمل لزائره سحر البيئة ويعرفه على جانب من الحضارة السورية بما يحمله من عناصر إنشائية وزخرفية وفنية وحرفية يمكن تطويره كإرث حضاري واعتماده نموذج مؤثر في المنازل الحديثة، مع الإشارة إلى أهمية موقع سورية ضمن طريق الحرير الذي يشكل إحدى ركائز التنمية والنهضة الاقتصادية التي تشكل تحولاً كبيراً في مجال تنويع الاقتصادي العالمي، ورفع مستوى البنية الأساسية وخلق فرص العمل، وتسريع وتيرة التنمية واستدامتها على حدٍ سواء.

**الخاتمة:**

هناك أرضُ الحُلْمِ عاليةٌ، ولكنَّ السماءَ تسيرُ عاريةً

وتَسكُنُ بين أَهل الشام ...

محمود درويش